

ميكانيزم الإبدال

علم

كمال الدين عبد الحميد نابل

مدرس الفلسفة بشين الكوم الثانوية

يعيش الإنسان في صراع بين دوافعه اللاشعورية العنيفة النزاعة دائماً إلى التعبير عن نفسها دون ما احتفال بالواقع من ناحية ؛ وتقاليده المجتمع وآدابه التي عليه أن يلتزمها وإلا كان عرضة للنقد الذي قد يشد فيصل إلى حد النبذ من ناحية أخرى . وإحدى الحيل التي تتخذها الدوافع اللاشعورية العنيفة للتعبير عن نفسها هو الإبدال .

ولكن ماذا نعني بالإبدال ؟ يمكن أن يعرف الإبدال بأنه انتقال الانفعال أو الرغبة أو الفكرة أو الخيال من شخص أو موضوع كانت موجّهة إليه في الأصل إلى شخص أو موضوع آخر . والأصل في الإبدال أن ينظر إليه على أنه نقل للمشاعر الوجدانية أو الاتجاهات النفسية أكثر مما هو نقل فعل للسلوك ؛ ولكن نقل السلوك يمكن النظر إليه على أنه المظهر الخارجي الذي يتخذه الإبدال . فتقرب الطفل نحو رجل ما لشعوره بأن أباه شخص يوثق به ويمكن الاعتماد عليه كمثل توضيحي بسيط لعملية الإبدال .

ولعلّ مما يساعدنا على توضيح ميكانيزم الإبدال ذكر الدوافع المحركة له والتماذج المتنوعة التي يتخذها والفرق التي تميزه عن غيره من الظواهر الشبيهة به كالفعل المنعكس الشرطي . ويلاحظ الباحث أول ما يلاحظ ظاهرة على درجة كبيرة من الأهمية في توضيح ميكانيزم الإبدال ألا وهي ظاهرة انقسام الحالة الوجدانية Splitting of the affect فيشير الإبدال إلى أي نقل للانفعال أو الرغبة أو الفكرة ولكن ما يهمنا أكثر هو نقل الحب والكراهية . فيتعلم الطفل الحب أول الأمر في المجال العائلي ، ويرى منذ وقت مبكر أن الأب والأم موضوع للرغبة . ويحتاج الطفل إليهما أول الأمر لأنهما يحميانه ويحققان له إرضاء رغبته ثم يتطور

الأمر بعد ذلك إلى الرغبة فيهما فقط . وكلما ازداد نمو الطفل واتسعت دائرة أصدقائه ومعارفه فإنه سرعان ما يتقل أو يتحول مشاعر الحب والصدقة إلى الأشخاص الذين يصادفهم في مجالاته التي تتسع دوماً .

وكذلك يشعر الطفل بالكراهية أول ما يشعر في المجال العائلي . ويتقل مشاعر الكراهية التي يشعر بها إزاء أبيه أو أمه إلى الإخوة والأخوات أولاً وبعد ذلك إلى الأصدقاء وزملاء اللعب ثم تتسع الدائرة فتشمل عدداً كبيراً من الناس . ومن المهم أن نلاحظ أن الوجدانات والرغبات والأفكار الخيالية الموجهة نحو شخص معين يمكن أن تنقسم وتتفصل في عملية الإبدال وتوزع على عدد كبير من الأشخاص . فإذا كان في الإمكان أن تحب أو تكره نفس الشخص في نفس الوقت . فإنه من الصعب التوفيق بين هذه الاتجاهات المتعارضة بطريقة شعورية وهذه المشاعر والوجدانات الثنائية (التي تشتمل على الحب والكراهية في نفس الوقت) التي يشعر بها المرء نحو شخص معين يمكن أن تنقل إلى عدد كبير من الأشخاص وهذه الطريقة تتبدد شدتها . ولعل المثال الآتي يوضح ما نقول .

ولير شاب^(١) يشعر بمشاعر مختلفة نحو الأشخاص الذين يتعامل معهم . فيشعر بنوع من الإذعان والضعف بالنسبة لمن هم أرق منه كعميد الكلية مثلاً ، ويعاني صعوبة في محاولته أن يكون طبيعياً في حضرتهم ، ويشعر بإزاء بعض زملائه بشعور الزمالة في وجودهم . ويميل إلى السخرية من بعض زملائه الذي يخس أنه أرق منهم . ويشعر نحو البعض القليل من زملائه بالحنس والغيرة ويستجيب لمعاملتهم كما لو كانوا أعداءه في معركة هامة . ويبدو أن سلوكه هذا خارج عن إرادته تماماً .

ولقد تكشف التحليل عن أن هذه الاتجاهات التي يسلكها بإزاء من يتعامل معهم ترجع أصولاً إلى عهد الطفولة وأنها صورة لمواقفه واتجاهاته في الطفولة بالنسبة لأبيه : فأحياناً كان يشعر بأن أباه يمثل السلطة كلها ويشعر بتفاهته وعدم قيمته وأحياناً أخرى كان أبوه صديقاً له . وفي بعض المناسبات كان يشعر بأنه متنافس لأبيه في العائلة ، وكثيراً ما وجد - في صغره أنه يشعر بنوع من الخجل إذا ما قارن أباه بغيره من الرجال . وانقسام الحالة الوجدانية بالنسبة للشخص يخدم وظائف متعددة مهمة . فهي تمكن المرء من الشعور والسلوك بكل قلبه دون ما شك أو ذنب

(١) Percival Symonds: "Dynamics of human adjustment", p. 253.

نحو شخص آخر وهذا لا يتأتى إذا ما عرف الإنسان أن في الإمكان إضمار عكس هذه المشاعر . ولنوضح ذلك القول بمثال . لنفرض أن ولداً ما يحب ويكره أمه ولكنه يشعر بشيء من الحجل من إضمار هذه الاتجاهات العدائية التي لا تقرها قواعد الأخلاق نحو أمه . فيضطر إلى كبت هذه الاتجاهات العدائية . فإذا ما نقل هذه الاتجاهات العدائية من الأم نحو غيرها من النساء ولتكن عمته أو خالته فإن ميوله العدائية ستجد منفذاً للتعبير عنها وفي نفس الوقت يتمكن من التعبير عن مشاعر الحب نحو أمه دون ما شعور بالذنب ، وعلى هذا النحو تكون الصعوبة التي يعانيها المرء شعورياً في حبه وكراهيته لنفس الشخص في نفس الوقت الدافع الحقيقي للإبدال . والإبدال — بهذه الطريقة — يسمح للفرد على أن يتعرف مشاعره بإزاء شخص ما بحيث يقع هذه المشاعر المضادة بالنسبة لهذا الشخص بنقلها إلى شخص آخر أو موضوع آخر حيث لا يكون في نقلها إليه أى معارضة .

والإبدال ميكانيزم ينحو إلى العناية بمشاعر أو اتجاهات معينة تعلم الفرد تجربته أنها غير نبيلة وشريرة وغير لائقة . وبما أن هذه المشاعر تكون في حالة كبت جزئى فلأنها تنقل أو تراح إلى شخص ما أو شيء ما . وبهذه الكيفية يتاح لها التعبير عن نفسها . فالدافع إلى الإبدال إذن هو كبت نزعة ما بسبب خطورتها أو عدم رضا المجتمع عنها . فيسمح الإبدال لهذه الانفعالات العنيفة بالتعبير عن نفسها دون حاجة إلى معرفة الشخص أو الموضوع الأصلي الذي كان هدفاً لهذه الانفعالات وإذا ما كبت الحب والكراهية كبتاً مطلقاً فإن هذا سيؤدى حتماً إلى زيادة التوتر النفسى . فالإبدال يعين المرء على التعبير عن انفعالاته دون معرفة من جانب الشخص بالموضوع الأصلي الذى كانت هذه الانفعالات موجهة إليه في الأصل ومن ثم يحمى الشخص من معرفة المعنى الذى تستهدفه هذه الانفعالات . ووفق ذلك . فالإبدال وسيلة لتنقية الوجدانات والمشاعر نحو شخص نرغب في حبه أو نخاف من كراهيته وبهذا يكون الإبدال وسيلة لتخفيف الصراع الناجم عادة عن التناقض

الوجدانى Ambivalence

ويلاحظ دائماً في الإبدال رابطة ما بين الموضوع الأصلي والموضوع البديل . وقد تكون هذه الرابطة بارزة أو دقيقة . ويمكن للمرء أن ينقل مشاعر الحب أو الكراهية من شخص إلى آخر يشبهه في الطول أو لون العين أو لون الشعر الخ ويبدو أن الصوت ودرجة تلونه له قيمة وجدانية خاصة .

وعليها الآن أن نحيز بين الإبدال والفعل المنعكس الشرطي . ولنبداً بالفعل المنعكس الشرطي . لاحظ ياقلوب أثناء تجاربه في عملية أن لغاب الكلب - الذى اتخذته موضوعاً لتجاربه - يسيل قبل وضع الطعام في فمه . فقد يسيل اللعاب بمجرد رؤية الخادم أو سماع وقع خطواته . ولما لا جذاًل فيه أن وجود الطعام مثير طبيعى لسيلان اللعاب ولكن رؤية الخادم أو سماع وقع خطواته ليست مثيرات طبيعية لسيلان اللعاب . ولكنها قد ارتبطت بالاستجابة من طول المدة التى اتخذتها التجارب مما دعا إلى أن تكون إشارة أولية على قدوم الطعام . ولقد استعمل ياقلوب اصطلاح « الفعل المنعكس الشرطي » للدلالة على الفعل المنعكس الذى ترتبط فيه الاستجابة بمؤثر بديل « كدق الجرس - اخذاة لبة كهربائية » للمؤثر الطبيعى . وعليها أن نساءل الآن ، هل ينبغي النظر إلى عملية الإبدال على أنها عملية لا تزيد شيئاً عن ظاهرة الفعل المنعكس الشرطي ؟ ولقد وجه كثير من المحللين للنفسين النظر إلى العلاقة الوثيقة بين ميكانيكيزم الإبدال والفعل المنعكس الشرطي . ويذهب فرنك ^(١) Frink إلى القول بأن التحويل Transference - وهو شكل من أشكال الإبدال - عملية تطابق كل المطابقة الفعل المنعكس الشرطي . ويعتقد دالبية Dalbiez ^(٢) - ويشاركه الرأي كثيرون من علماء النفس - بوجود فارق كبير جوهري بين الفعل المنعكس الشرطي والإبدال . ففي الفعل المنعكس الشرطي لا تنفصل الطاقة الوجدانية حقيقة عن موضوعها الأصيل . فإذا ما استعمل المؤثر الشرطي مدة طويلة دون أن يكون مصحوباً بالمؤثر الأصيل (تقديم الطعام) فإن الحيوان يكف عن الاستجابة . وعليها أن نلاحظ أن الحيوان يستجيب دوماً للمؤثر الأصيل . والأمر على خلاف ذلك في الحالات النموذجية للإبدال . ففي الإبدال يحتفظ الموضوع الثانوى أو البديل بقدرته على إطلاق الحالة الوجدانية بشكل ما ، وبالإضافة إلى ذلك فإن الموضوع الأصيل يفقد هذه القوة . من هذا نرى أن الإبدال بمعناه الدقيق يختلف عن الفعل المنعكس الشرطي وأن له طابعاً متفاوت درجته من حيث الشبوذ .

ويجب أن نضيف إلى ذلك أن الإبدال كما يراه فرويد إنما هو دائماً من

(١) Frink: "Morbid fears and Compulsions", p. 119.

(٢) Dalbiez: "Psychoanalytical Method & the doctrine of Freud", p. 119.

(٣) Freud: "Introductory Lectures on Psycho-Analysis", p. 147.

فعل الرقيب . وعلى هذا يتضمن الإبدال غائية لا تتحقق بالنسبة للفعل المنعكس الشرطى .

ولا ينبغي أيضاً الخلط بين الإبدال والتحويل على النحو الذى قال به ريبو Ribot . فلقد كتب السيكولوجى الفرنسى وصفا رائعاً للعدوى الانفعالية التى يتم بها انتقال الوجدان من الموضوع الرئيسى إلى الموضوعات التى تربط بها علاقة ما « فلا يقتصر المحب فى حبه على محبوبته بل يمتد حبه إلى كل ما له صلة بالمحبيب فتراه يحب أثاثها وزيارتها ومزتها . . . الخ » . فالتحويل كما فهمه ريبو Ribot ليس إلا القابل النفسى للفعل المنعكس الشرطى .

ولعل أكثر الظواهر قرباً بعملية الإبدال هى ما أطلق عليها بيير جانيه Pierre Janet فى كتابه الموسوم *Les Obsessions et la Psychasthénie* لفظ الاشتقاق *derivation* ويقول جانيه فى وصف الاشتقاق « عند ما تنبى قوة معدة فى الأصل لأن تبدل فى إيجاد أثر معين غير مستخدمة لأن هذا الأثر أصبح مستحيلاً تحدث الاشتقاقات أى أن هذه القوة تبدل فى إيجاد آثار أخرى لم تكن فى الأصل مقصودة كما أنها تافهة » ويضرب لذلك مثلاً بقوله « عند ما نلاحظ إخلاص ولاء المرأة التى لا ولد لها لكلب أو ببغاء فإننا نكون نزاعين إلى القول بأن هذه حالة اشتقاق من حب الأم » .

ويمكن أن نستنتج مما سبق الحقيقة الآتية : بينما يتميز الإبدال عن الفعل المنعكس الشرطى لبافلوف فإنه يناظر فى جوهره « اشتقاق » جانيه . فليس هناك فارق ذاتى بين الإبدال والاشتقاق ! وكل ما هناك من وجوه الاختلاف هو اختلاف ظاهرى : فإن كلا من فرويد وجانيه لا يرجعان الظاهرتين إلى أسباب وعلل واحدة فيرى جانيه أن انحراف التغير الوجدانى يمكن أن يكون راجعاً إلى سبب غير معين فى حين أن فرويد يغزو الإبدال إلى الصراع النفسى الداخلى *Endopsychic Conflict* وعمل الرقيب . والآن قد وضح لنا رأى فرويد فى الإبدال . ويرى فرويد أن الإبدال أثر من آثار الكبت لأن الكبت - كما يحب فرويد دائماً أن يذكر قارئيه - هو الحجر الأساسى الذى يركز عليه بناء التحليل النفسى .

(1) Ribot: "The psychology of the Emotions", p. 177.

(2) Janet: "Les obsessions et la psychasthénie", Vol. I, p. 555.

(3) Freud: "Introductory Lectures on Psycho-Analysis", p. 147.

وسنذكر الآن بعض الأنماط التي يتخذها الإبدال كالإبدال نحو الأشخاص والأشياء أو نحو الذات . ونلاحظ أن أسهل وأوضح أشكال الإبدال تتمثل في نقل المشاعر والانفعالات من شخص إلى آخر ويوجه خاص الأشخاص الذين يتعامل معهم المرء سواء في الأسرة أو العمل . وتنتج ظاهرة الإبدال بوضوح عند ما نتعامل مع أشخاص أرفع منا مرتبة كأن يكون بيدهم مقاليد الأمور أو نخاف أن يصيبنا منهم مكروه . ففي هذه الحالة يجد المرء صعوبة في أن يعبر عن مشاعره بصراحة ولكن من السهل عليه أن ينقل هذه المشاعر العدائية إلى من يأمن جانبهم . وقد يكون البديل السلطة بمعنى أن المشاعر العدائية تنقل من الشخص - ولكن الأب - إلى الانتقام من السلطة . فلا يجروا الطفل على التصريح بمشاعره العدائية نحو أبيه لحرمانه إياه من أشياء يرغبها فيحول هذا الشعور بالعداء نحو السلطة فيسرق كتب زملائه . ويمكن إرجاع معظم النزعات الإجرامية إلى ميكانيزم الإبدال ! فهي نقل للمشاعر العدائية من شخص - غالباً ما يكون الأب - إلى المجتمع .

ويمكن أن تكون الأشياء « بديلاً » لما نشعر به من مشاعر وانفعالات عدوانية . مثال ذلك الطفل الذي لا يقدر على الإفصاح عن كراهيته لأخيه الكبير فيلجأ إلى تحطيم ممتلكاته . وقد يكون البديل « الذات » . فتصبح الذات محلاً للنزعات والمشاعر والأفكار التي كانت موجهة في الأصل إلى شخص آخر . وعلمنا أن تميز بين حب الذات الناجم عن الإبدال وبين الاهتمام الأصلي بالذات عند الطفل الصغير قبل أن يعرف كيف يوزع مشاعره ووجداناته على الأشخاص والأشياء . فإذا ما وجه الحب إلى شخص - ولكن حب الطفل لأمه - فإن مثل هذا الحب حب يشعر معه الطفل بالذنب وعلى ذلك ينقل إلى الذات ويمكن أن يتخذ الإبدال صورة عديدة كالأنانية أو التمرکز حول الذات . وقد يتخذ هذا النوع من الإبدال صورة جحد الذات Self-renunciation . مثال ذلك الطفل الذي يضمم نزعات عدوانية قوية نحو الآخرين ولكنه يخاف أن يسفر عن هذه النزعات لمطورتها ومن ثم تتحول هذه النزعات إلى الذات وتتخذ صورة تحقير الذات أو تقدحها أو الشعور بالضعف . وهذه الخصائص : عند ما تبدو في صورة مبالغ فيها ولا يوجد ما يدعو إليها ؛ يمكن النظر إليها على أنها نقل للنزعة العدوانية الموجهة إلى أشخاص غير مرغوب فيهم ، يحولون بين الشخص وتحقيق رغباته إلى الذات . ويمكن أن يكون « الحيوان » بديلاً . فمن الممكن نقل الوجدانات العنيفة

والتزعات القوية بين موضوعها الأصلي إلى موضوعات بديله كالحَيوان . ذلك لأن التعبير الصريح عن هذه التزعات القوية مصدر خطر كبير للفرد . وكثيراً ما نشاهد الأطفال يقومون بتعذيب الحيوانات كالقطط والكلاب . ولعل السبب في ذلك راجع إلى أن الأطفال يعانون وجدانات عنيفة ودوافع غريزية قوية ضد من يبدون السلطة . ولما كان التعبير بصراحة عن هذه الدوافع مصدر خطر للطفل فإن هذه المشاعر العنيفة تنقل إلى موضوعات بديله لا ينجم عنها أى ضرر . والأمـر كذلك بالنسبة للمخاوف الشديدة غير المعقولة التي يعانها بعض الأشخاص بالنسبة لبعض الحيوانات . فإن هذه المخاوف تكشف عن نقل مشاعرنا العنيفة من الأشخاص الذين نشعر بليزاتهم بشقاق ووجداني كالأب إلى الحيوان . فنحن نعرف أن الأب يكون موضوعاً للحب والخوف . وهذا الاتجاه يتضمن تناقضاً وجدانياً ! وبما أن الطفل يود شعورياً أن يكشف عن الحب فقط فإن نزعات الخوف والكراهية تنقل إلى أشخاص أو موضوعات أخرى كالحَيوانات .

وميكانيزم الإبدال من الميكانيزمات الرئيسية في تكوين الأحلام . ولقد وجه فرويد إليه الأنظار ونسب إليه أهمية خاصة . ولقد ذكر حلماً قام بتحليله فرنك كمثال يوضح لنا الإبدال من الأحلام . ولقد رأيت هذا الحلم فتاة تعاني من عصاب تسلطي . فلقد حلمت أنها في حضرة رجل بدت هويته غامضة لها ولكنها مع ذلك تشعر بأنها مدينة له بحميل . فقدمت له مشطها كهدية رغبة منها في الاعتراف بحميله . والمضمون الصريح لهذا الحلم مألوف . ولكي نفهم المعنى الذي يستهدفه الحلم . علينا أن نتعرف تاريخ حياة الحالة : هي فتاة إسرائيلية تقدم لخطوبتها شاب يروتستني قبل حدوث الحلم بعام فصادف في نفسها هوى وقبولا . ولكن في اختلاف الدين عقبة حالت دون إتمام الزواج . وكانت الفتاة تعتقد أن مثل هذا الزواج يكون معيباً ما لم يصحبه إنجاب الأطفال لأن في وجودهم خلق لمشاكل الدين التي يعقبها الشقاء . وفي اليوم الذي وقع في مسائه الحلم حدث نزاع عنيف بينها وبين أمها . وفي طريقها إلى سريرها فكرت الفتاة أن من الخير لها ولعائلتها أن تترك البيت منعاً لهذا النزاع . وأستسلمت للنوم وهي تنعم النظر في الطوق التي تمكنها من أن تقوم بأمر نفسها دون ما معونة من أهلها .

ولقد أمر فرنك الفتاة أن تترك نفسها على سجينها وتذكر الكلمات التي تتداعى

تلقائياً مع كلمة مشط . فقالت الفتاة إنها تسمع الناس يقولون لمن يحاول أن يستعمل مشط غيره « لا تفعل هذا إنك بذلك تخلف الأنساب » .

وفي هذه الفكرة مفتاح التأويل . فالشخص صاحب الهوية الغامضة هو الشاب البروتستانتي . وإعطاء الفتاة المشط له في حلمها إنما يعبر عن رغبتها في خلط الأنساب أي الاقتران به وإنجاب الأطفال . فهذا حلم يوضح عملية الإبدال . فالمشط المهدى إلى صاحب الهوية الغامضة « بديل » عن الرغبة في الزواج من الشخص المجهول . وهذا التحليل يكشف عن أصالة فكرة الإبدال التي قال بها فرويد . ولكن لماذا حدث الإبدال ؟ مرد ذلك إلى الرقيب الذي لا تغفل منه الأفكار والدكريات إلا مقنعة . فالحلم لم يعبر صراحة عن رغبة الفتاة في الزواج وإنما استعمل بديلاً عن هذه الفكرة التي قمعتها الحاملة فكرة إهداء المشط . وبهذا انفصل النشاط الوجداني عن موضوعه الأصلي وتحول إلى صورة بديله بناء على رابطة التداخي الموجودة من قبل . والإبدال هو نفس الاشتقاق الذي قال به ريبو . ولكن على المرء أن يذهب بالاشتقاق إلى أصوله . فكيف يمكن لحلم كحلم إهداء المشط أن يرتبط بعقله وأسبابه من غير استعانة بمنهج التداخي التلقائي الذي أصطنعه فرويد ؟

ولقد قام الكاتب بتحليل حلم يكشف كذلك عن عملية الإبدال . فلقد رأت إحدى السيدات في نومها أنها في مكان مهجور بصحبة شاب كانت تحبه قبل زواجها . وأنها دخلت في محبته في كهف حيث قاما بعمل كل ما يشبهانه . وعند خروجهما اعترضهما شرطى فأمرت صاحبتها أن يبرز له قيمة زواجهما . وتفسير الحلم لا يتضح إلا بمعرفة شيء عن الحاملة . فلقد كانت الحاملة على علاقة غرامية مع أحد الشبان . ولكن هذه العلاقة لم تنج بالزواج مما أدى إلى زواجها بشخص آخر لا تحب إليه . وفي اليوم الذي وقع في مسائه الحلم حدثت مشاجرة بينها وبين زوجها . ولقد أدى تفسير الحلم إلى الحقيقة الآتية : أن « الشرطى » بديل عن الزوج خاصة وأن الزوج يلبس في بعض الأحيان ملابس شبيهة بملابس الشرطة — وأسفر عن رغبة الحاملة في التخلص من زوجها والزواج بغناها الذي لم تساعد الظروف على زواجها منه . فكان « الشرطى » بديلاً عن الزوج الذي يقف عقبة في سبيل زواجها بمن تحب كما أن قيمة الزواج دليل على رغبتها في التخلص من زوجها والزواج بمن تحب .

وستكلم الآن عن بعض العلاقات البارزة التي يتم الإبدال فيها . وستقتصر

في كلامنا على نقل الطفل اتجاهاته ومواقفه بالنسبة لأبيه إلى إخوته وأقاربه وإلى من يقوم مقام الأب Parent-substitutes . من المعروف أن الطفل يستجيب بالحب والكراهية لمواقف والديه بالنسبة له منذ السنة الأولى . ويبدل الوالدان جهدهما في إخماد استجابات الكراهية التي تتخذ صورة الغضب والسلوك العدواني . والردافع إلى ذلك هو رغبة الوالدين في المحافظة على طفلتهما . وفوق ذلك ، فإن حضارتنا الحالية لا ترضى عن السلوك العدواني ومن ثم يحاول الوالدان تنشئة طفلتهما وتشكيله وفقاً لقواعد السلوك المرعية جاعلين ذلك الهدف التربوي الأول .

ويظهر الطفل في سنه الأولى علامات الحب نحو والديه ، وإذا لم يتقبل الوالدان هذه العلامات قبولاً حسناً أو محلاً على كنفها فإن الطفل يلجأ إلى إخمادها وكنفها . وأحد الوسائل التي يلجأ إليها الطفل لمعالجة القبول التي يرفضها الوالدان على كل من نزغاته إلى الحب وميوله العدوانية هو الإبدال . وأكثر صور الإبدال وضوحاً هو نقل اتجاهات الطفل نحو والديه إلى إخوته وأقاربه . فإذا ما خاب تقرب الطفل نحو أبيه فإنه ينقل مشاعر الحب والعطف نحو إخوته . وإذا كان من الخطر على الطفل أن يسفر عن نزغاته العدوانية نحو أحد والديه فإنه ينقل هذه المشاعر العدوانية نحو إخوته . ولكن علينا أن نلفت النظر إلى الحقيقة الآتية ألا وهي أن جميع ضروب المنافسة التي تظهر بين الإخوة ليست مردّها كلها إلى الإبدال . ولكن هناك بلا شك حالات حوت فيها الكراهية المكبوتة نحو أحد الوالدين إلى الإخوة . ولعل الأمر يكون أكثر سهولة إذا ما نقل الطفل مشاعر الكراهية التي يحسها نحو أبيه إلى إخوته . وإذا ما كانت الصلة قوية بينه وبين إخوته فإن الطفل ينقلها إلى أحد أقربائه كإبن العم .

وقد يعانى الزوج ووجدانات عدوانية لا شعورية نحو زوجته ولكن متانة الصلة التي تربطهما تمنعه ليس فقط من التعبير عنها بل من الاعتراف بها . ومع ذلك فإنه لا يجد صعوبة في نقل هذه المشاعر العدوانية نحو حماته .

وكثيراً ما ينقل الطفل الانفعالات والمشاعر التي يعانها إلى من يمثل الأب كالمدرس أو من يبدع السلطة . وكثيراً ما يعجب المدرسون للمواقف العدائية التي يتخذها عدد معين من التلاميذ بأزائهم . وتفسير ذلك بسيط ، فهؤلاء الأطفال ينقلون ما يحسون به من مشاعر عدوانية مكبوتة أزاء والديهم إلى المدرسين لأن من

الخطر عليهم أن يعيروا عنها بصراحة نحو والديهم .

ولعل من الخير أن نختم هذا المقال بكلمة عن قيمة الإبدال . إن للإبدال قيمة واضحة من حيث أنه يساعد المرء على كبت المشاعر والرغبات والأفكار الخطيرة غير المقبولة ! ومع ذلك فإنه يسمح لهذه الانفعالات العارمة بالتعبير عن نفسها الأمر الذى يترتب عليه العمل على زوال أو تخفيف التوتر النفسى الناجم عن كبتها ولقد بينت Isaacs أن ميكانيزم الإبدال يعمل على تثبيت قوة المشاعر العنيفة سلبية كانت أم إيجابية التى يشعر بها الطفل نحو والديه .

ولقد بدأ علماء النفس يقدرون شدة وقوة انفعالات الطفل . وكلما ذهب الطفل بعيداً عن دائرة العائلة فإن هذه الوجدانات العنيفة من الممكن تخفيفها بالتعبير عنها في كثير من المواقف المختلفة الأمر الذى يترتب عليه امكان معالجتها وقيادتها على نحو حسن . وإذا ما وجهت هذه الوجدانات العنيفة نحو شخص واحد فإنها تكون في غاية الشدة . وبما أن هذه الانفعالات الأصلية تتجه نحو أشخاص آخرين غير الوالدين فإنها تنتشر ومن ثم تزول شدتها ويتمكن الطفل من السيطرة عليها ومن ثم يكون التعبير عن الحب والكراهية ليس قاصراً على اقبال العائل بل يمتد إلى المدرسة واللعب وغيرها فتقل الطفل لانفعالات الحب والكراهية خارج جدران العائلة ضرورى لبناء وتكوين شخصيته .

والقيمة الثابتة التى بينها Isaacs هي ظاهرة انقسام الحالة الوجدانية إلى الحب والكراهية . فإذا كان على الطفل أن يحب ويكره نفس الأشخاص بنفس الدرجة من الشدة . فمن المحتمل أن تصير هذه الانفعالات المتصارعة في حالة حيادية الأمر الذى يترتب عليه أن لا يجزأ الطفل على إظهار حبه وتعاونه بنفس القوة التى يبديها بالفعل لمن يعاشره ومن ثم به صلة وثيقة . ولعل هناك بعض الحق في قولنا إن الحب والإخلاص الشديدين لشخص ما أو جماعة قد يصلان إلى حد من القوة يترتب عليه أن تنتقل الكراهية إلى أشخاص آخرين .

والإبدال لا يعمل فقط على حماية المرء من المشاعر القوية العنيفة التى لا ترضى عنها حضارتنا الحالية ولكنه يسمح أيضاً لهذه الانفعالات بالتعبير عن نفسها بطريقة مقبولة تعين الشخصية على استكمال نموها .

كمال الدين عبد الحميد نابيل